



تجبنا الكتابة عن المعارضة السورية وتشرذمها وبعض خطابها وممارساتها حتى لا يصب ذلك في خدمة النظام، لكن استمرار الحديث في هذا الموضوع من جانب أطراف دولية وعربية، قليل منها حريص على الشعب السوري، فضلاً عن أوساط النظام وشبيحته وأبوابه الإعلامية التي تتواءم بين الداخل والخارج وتشمل أناساً من شتى الجنسيات وإن انحصاروا في خلفيات أيديولوجية معروفة، كل ذلك كان لا بدّ أن يدفعنا نحو الخوض في هذا الموضوع، وإن على نحو مختلف بعض الشيء.

ما ينبغي أن يقال ابتداءً ودائماً وأبداً، هو أننا إزاء شعب عظيم ورائع خرج إلى الشوارع في ثورته السلمية المتميزة وهو يدرك تمام الإدراك أي نظام يواجهه، سواء أكان ذلك على صعيد البنية الأمنية، أم على صعيد التحالفات التي أنشأها في السياق السياسي العربي والإقليمي، والتي صبّت في صالحه بشكل جيد لا يقل أهمية عن العمل على صعيد البنية السياسية الداخلية المترسّمة في السير على الحال والترويج للنفس واحتراق المعارضات، وعموم أشكال العمل الإعلامي السياسي بسائر تنافضاته.

كان الشعب السوري يدرك أيضاً أنه إزاء نظام طائفي قادر على اللعب بورقة الطائفة على النحو الذي يخدمه، ومعها ورقة الأقليات على نحو يجعل ربع الشعب إلى جانبه حتى الرمق الآخرين، لاسيما الطائفة التي ينتمي إليها وتشعر أن وجودها مرتبط ببقائه، الأمر الذي لا يمكن أن يكون صحيحاً بالطبع لأن نجاح الثورة لا يعني سوى إشاعة العدالة وروح المواطنة وليس الاعتداء على أي أحد بسبب طائفته.

لا يشبه هذا النظام نظام القذافي بஹلوساته السياسية، ولا النظام اليمني بقدراته المحدودة، وإن اشتهر رئيسه بالكذب المكشوف في أكثر الأحيان، مع قدرة مشهودة في سياق اللعب على التنافضات. كما أن سوريا ليست مصر التي كانت تعيش حياة سياسية وإعلاماً منفتحاً رغم سيطرة الحزب الوطني وعصابة الرئيس على كل شيء، وهي أيضاً ليست تونس التي توجد فيها قوى ومنظمات مجتمع مدني قوية، فضلاً عن أحزاب سياسية وحركات لم تغب تماماً عن الساحة رغم بشاعة القمع.

في مواجهة مثل هذا النظام بكل قدراته تلك، خرج الشعب السوري إلى الشوارع. خرج وهو متأكد تماماً من أن الرد سيكون بالرصاص الحي، لأن منطق مثل هذه الأنظمة معروف، وخلاصته أن تقديم تنازلات سريعة في مواجهة الاحتجاجات يعني

بكل بساطة فتح شهية المحتجين لمزيد من الضغط وصولاً إلى إسقاط النظام، ولهم فيما جرى للنظامين التونسي والمصري مثل عبرة كما سيقولون.

وгин جاء الرد بالرصاص الحي والاعتقال والقتل تحت التعذيب لم يرتعب الناس، بل رفعوا وتيرة الاحتجاج وصولاً إلى رفع شعار "الشعب يريد إعدام الرئيس"، وليس فقط إسقاط النظام.

ما أكد قدرات النظام المشهودة هو النهج التي اتبعه في مواجهة الثورة، والذي لا نجد غضاضة في الاعتراف بذلك، ويخلص في سياسة القتل بالتقسيط كما وصفناها منذ الأسابيع الأولى للثورة، مشفوعة بنشر الجيش والأجهزة الأمنية والشبيحة في الشوارع، مع استمرار الاعتقالات والتعذيب ونشر الرعب في أوساط الناس.

هذه السياسة لا غيرها هي التي أفضت إلى محدودية الاحتجاجات مقارنة بالمظاهرات والاعتصامات المليونية التي عرفتها الثورات العربية الأخرى، وخاصة في مصر واليمن، وهي ذاتها التي أدت إلى غياب الاحتجاجات عن قلب مدینتي حلب ودمشق، بل حتى ساحات المدن الأخرى - حدث في حماة أن خرجت المدينة بكاملها قبل أن يقتسمها الجيش، ويفؤدي ذلك إلى عودة الاحتجاجات إلى طبيعتها من حيث المسيرات المتفرقة في الأحياء.

لولا هذه السياسة لرأينا مظاهرات واعتصامات مليونية لم تعرفها الثورات الأخرى تبعاً لحجم الغضب على النظام، وما يؤكّد ذلك هو رفضه الدائم لأية مبادرات سياسية تنطوي على إخراج الجيش من الشوارع والسماح بالاحتجاج السلمي، لأنّه يدرك أنّ أمراً كهذا سيعني تدرج الاحتجاجات وصولاً إلى سقوطه.

كل ذلك، ومعه وبقبيله وبعد حجم التضحيات الرهيبة الذي قدمه الشعب السوري طوال عام من الثورة يؤكّد عظمة هذا الشعب وإصراره على الانتصار مهما كان الثمن، أيّاً تكون فرص صمود النظام تبعاً لمعادلة إقليمية دولية تصب في خدمته، إضافة إلى تشنّم المعارضة وخلافاتها وتناقضاتها. يدخلنا هذا بعد الأخيرة مباشرة إلى واقع المعارضة السورية الذي يصبُّ بهذا القدر أو ذاك في خدمة النظام، خلافاً للحال لو كانت تلك المعارضة قوية وموحدة، وهو واقع يستغلّه الكثيرون في إشاعة اليأس بين صفوف الناس في الداخل والخارج، مع ترويج مقوله إن سقوط النظام سيدخل البلاد في أتون حرب أهلية وربما أدى ذلك إلى تقسيم البلاد كما ذهب إليه بشار الأسد نفسه في بعض تصريحاته.

من المؤكّد ابتداءً أن سلوك المعارضة السورية لا يزال يمنع النظام وشبيحه السياسيين والإعلاميين في الداخل والخارج، وربما منح بعض القوى الخارجية أيضاً، ذخيرة لطخها بها والتقليل من شأنها وصولاً إلى التبشير بحل سياسي يدمجها في السلطة عبر إصلاحات شكلية يجريها النظام بنفسه، وليس عبر مسارات سياسية تؤدي إلى إسقاطه بالكامل. ويحدث بالطبع أن ترافق لهذا الحل دول كبرى مثل روسيا والصين، فضلاً عن قوى إقليمية وعربية مثل إيران والعراق وحزب الله وبعض القوى والأحزاب القومية واليسارية، والأخير تزين خطابها بحكاية المقاومة والممانعة المستهدفة من قبل التحالف الأمريكي الصهيوني!!

والحال أن بعض ما يجري تداوله حول بؤس المعارضة وخلافاتها وإشكاليات شخصياتها ورموزها صحيح إلى حد ما، لكنه لا يشكل سوى جزء من الصورة التي تسعى أبواب النظام إلى إبرازها ومن ثم استثمارها في بث اليأس في صفوف الشعب السوري، إلى جانب حشد التأييد لنفسه والترويج لضرورات بقاءه.

ما ينبغي التذكير به هنا هو أن خلافات القوى هي ظاهرة طبيعية في معظم الثورات، إن لم يكن جميعها. صحيح أن بعض الثورات في التاريخ أبطالها ورموزها الكبار - لم يلغ ذلك أبداً الخلافات أو التباين بينهم في الرؤى والمواقف، لكن ثورات الربيع العربي ليس كذلك، إذ خرجت من ضمير الشارع الجمعي الرافض للقمع والفساد، وهي لا تسعى تبعاً لذلك إلى أن تستبدل بذكائر دكتاتورية شمولية ثورية جديدة، وهذا هو الملمح الأساسي الذي يرد بقوة على منطق النظام وشبيحه. لو كنا إزاء ثورة مسلحة بالكامل يخوضها تنظيم مسلح له قائد "الرمز" وقيادته "التاريخية" لكان يوسع النظام التشكيك فيه،

ويلتقط من موافقه ما يثير الشبهات، إلى غير ما هنالك من أساليب التشويه المعروفة، لكن الأمر ليس كذلك، إذ إن ما ي يريد الشعب هو إسقاط النهج الدكتاتوري واستعادة سلطته وقراره باعتباره وصيًّا على نفسه، وهو وحده سيعرف من ينتخب حين يذهب إلى صناديق الاقتراع لاختيار ممثليه، وإذا ما أخطأ في المرة الأولى أو اكتشف أن من انتخبهم لم يعبروا عنه بالقدر الكافي، فسيسقطهم وينتخب آخرين.

هي إذن ثورات شعبية وليس انقلابات عسكرية ولا حتى ثورات مسلحة بقيادات مؤسسة ورموز تاريخية، وبالتالي فإن المنخرطين في الثورة سينالون من الحظوة بحسب سلوكهم السياسي وخطابهم ونضالهم وقدراتهم.

معيب أن يشارك معارضون في مؤتمر يرعاه "برنار ليفي"، وأن تكون لعضو المجلس الوطني السوري بسمة قضماني علاقات بإسرائيليين وتصرิحات مسيئة للإسلام، فكل ذلك يسيء للمجلس أياً إساءة، والأفضل أن تترك موقعها بدل الدفاع عنها ببيان بائس لا يشير البة لما جرى تداوله حولها. كما يجدر التذكير بأن انتماء هذا المعارض أو سواه إلى لون فكري لا تقبله غالبية الشعب، أو اشتهره بسلوك حياتي لا ينسجم مع جموع الثائرين، كل ذلك لا يضير الثورة، بقدر ما يسيء إليه ولمن يتبنونه ويقدمونه من قوى المعارضة، ويبقى أن هؤلاء جميعاً يوجدون تحت عين الشعب الذي يرافق كل شيء، وحين تنتصر الثورة سيعرف الناس طريقهم ويخذلرون ممثليهم.

على أن ذلك لا يلغى بحال أهمية البعد المتعلق بعموم سلوك المعارضة ورموزها وموافقها، إذ إن لهذا السلوك تأثيراً كبيراً على إمكانية الانتصار وكلفته في آن، الأمر الذي يجعل من الاهتمام بهذا البعد على قاعدة النصح والإصلاح أمراً ضرورياً، وهو أفضل من التورط في لعبة التئيس التي تصب في مصلحة النظام، إن لم يكن هو الذي يحركها في الأصل عبر اختراقاته في البنية السياسية وحتى العسكرية للمعارضة، وهي اختراقات نجم بوجودها من دون تردد تبعاً لمعرفتنا بطبيعة النظام وبنيته الأمنية والسياسية وتحالفاته العربية والإقليمية.

المعارضون ليسوا سواء، ففي الداخل هناك انتهازيون مصابون بعقدة الإسلاميين ويريدون الإبقاء على النظام والحصول على جزء من الكعكة بأية وسيلة. وقد رأينا أحدهم يطير إلى الصين بعد ساعات من استخدامها "الفيفتو" لصالح النظام في مجلس الأمن. وفي الخارج يقتل بعضهم على جلد الدب قبل صيده، لكنَّ معارضين آخرين ينشغلون -ومنهم قوى وشخصيات معتبرة ذات تاريخ وتضحيات- بتقوية شوكة الوضع في الداخل كي يواصل تحدي النظام.

وفي تقديرِي أن الجزء الأخير من المعارضة ومن ينسجمون معه من رموز الداخل هو الذي يحظى بالاحترام، وهو الذي يُعول عليه في مواجهة الموقف إلى جانب الجماهير الثائرة، لاسيما أن حكاية الإصلاح باتت مرفوضة تماماً من قبل الناس حتى لو تبناها ثائر عابد زاهد مثل عمر المختار في الداخل أو الخارج، فضلاً عن أن يكون مشكوكاً في شخصه وتوجهاته.

المعارضة بحاجة إلى وقفة مع النفس لإعادة تقييم الوضع، ونبذ خلافاتها ما أمكن ذلك، ولكن بقاء شيء من ذلك كبر أم صغر لا ينبغي أن يدفع المخلصين إلى التشكيك في انتصار هذه الثورة، والقضاء على هذا النظام الذي فقد شرعنته السياسية والأخلاقية، ولم يعد أمامه غير الرحيل، بل السقوط الكامل لسائر أركانه ورموزه.

المصدر: الجزيرة نت

المصادر: